

التعليم في إسرائيل من منظور نظام الأبارتهايد في جنوب أفريقيا

أيمن اغبارية

مقدمة

تتشارك غالبية الأحزاب اليمينية، بمن فيها شرائح واسعة في حزب الليكود، في الاعتقاد بأن السيادة على "أرض إسرائيل التوراتية" هي غاية دينية سامية، تتفوق في أهميتها على المبادئ الديمقراطية. كذلك تسعى إلى تحقيق وحدة سياسية وثيولوجية في آن معاً بين "الشعب اليهودي" و "توراة إسرائيل" و "أرض إسرائيل". ويُنظر إلى مشروع الاستيطان كخطوة مهمة لتحقيق وحدة هذا الثالوث، في حين يجري إضفاء القداسة على دولة إسرائيل التي يُتعاظى معها بوصفها مرحلة ضرورية ومقدّسة قبل "مجيء المسيح". تتجلى هذه الثيولوجيا السياسية بكامل غيبياتها في معتقدات الحركة الصهيونية المتدبنة التي يؤمن أتباعها بأن الخلاص التام لن يتحقق إلا بعد أن يأتي جميع أبناء شعب إسرائيل للعيش في أرض إسرائيل في ظلّ السيادة اليهودية الحصرية.

مع هذه الثيولوجيا السياسية، باتت قوى اليمين المتطرّف في إسرائيل، تلك القوى التي كانت على الهامش قبل عشرين عاماً فقط، باتت تشكّل جزءاً أصيلاً ومركزياً ومؤثراً من إجماع إسرائيليّ جديد يتمحور حول مشروع ومصالح حركة الاستيطان الاستعماريّ في الأراضي المحتلة عام 1967. وقد عزّزت هذه القوى جهودها ونفوذها بغية تعظيم روح الجماعة اليهودية بوصفها جماعة تتفوق حضارياً على الفلسطينيين سكّان البلاد الأصليين، وتتميّز عنهم بعمق انتمائها التاريخي للبلاد. امتدّت هذه المساعي لتهويد المكان الفلسطينيّ، وتطوّرت لتشمل كلّ حيّز عامّ وكلّ مجال عموميّ تمارس فيه حقوق المواطنة والتعبير عن هوية الدولة. يجد هذا التديين للمجال العموميّ بروح معتقدات النّيار القوميّ - الدينيّ في إسرائيل والثيولوجيا السياسية التي يعتنقها، يجد مداه في الكثير من المؤسسات الحكومية والسلطات الرسمية، بمن فيها الجيش وجهاز التعليم. وقد شهد العقد المنصرم عدّة شواهد على التوجّه القوميّ - الإثنيّ المتطرّف الذي بات يترسّخ ويفرض نفسه في منظومة التعليم الإسرائيلية. على سبيل المثال، أشرفت الإدارة العامّة لجهاز التعليم الرسميّ الدينيّ على تطوير مناهج إلزاميّ للدراسات الاجتماعية في المدارس الابتدائية الحكومية الدينية يشمل فصلاً عنوانه "محبّة الأرض والهيكل". ويتجاهل هذا الفصل تجاهلاً تاماً الدلالات الدينية للحرم الشريف لدى المسلمين (يُعرّف لدى اليهود بـ "جبل الهيكل") ولا يشير إلى وجود المسجد الأقصى فيه.

تنظر هذه الورقة بعجالة على اشتباك الدين بالتعليم في نظام الأبارتهايد في جنوب أفريقيا، وتتبصر في إستراتيجيات تسويغ الفصل العنصريّ ضمن ذلك النظام. كذلك تحاول أن تستكشف نقاط التماس بين الحالة الإسرائيلية وحالة الأبارتهايد في ما يتعلّق بتوظيف الدين لخدمة التفوق والتراتبية والإقصاء.

نظام الأبارتهايد في جنوب أفريقيا: الدين والتعليم

تتمحور جميع أنظمة العنصرية حول أفكار ورؤى تُسوِّغ لها وتسبغ عليها الشرعية والمصداقية. تتسق هذه الأفكار والرؤى وتتنظم ضمن أيديولوجيات تسويغية يجري إنتاجها ونشرها عبر قنوات الثقافة والتعليم وغيرها. وفي المُجمل، يضحّم التسويغ العنصريّ الاختلافات الإثنية والثقافية، التي تتبع من اختلاف اللغات والعادات بين الجماعات، باعتبارها اختلافات فطرية ودائمة. وكذلك تعتمد منظومة التسويغ على نشر رواية جماعية تصوّر هيمنة جماعة على أخرى كما لو كانت حتمية وبديهية، بل مستحقة كذلك من الناحية الأخلاقية. وفي هذا تُستحضر جماعة متخيّلة على أساس اللون أو الأصل باعتبارها جماعة متفوقة ومقدّسة، كما هو الحال في تفوق العرق الأبيض والجنس الأريّ. ويصبح نقاء الجماعة "المتفوقة" وبقاؤها، ورسالتها التاريخية في بعض الأحيان، أسبابًا تسوّغ المواقف والأعمال العدوانية التي تتبناها هذه المجموعة تجاه الجماعات الإثنية والثقافية المختلفة عنها.

ويشكّل نظام الأبارتهايد في جنوب أفريقيا أحد الشواهد الجلية على الأنظمة العنصرية. نشأ هذا النظام في العام 1948، وذلك بعدما جرى سنُّه وتقنينه بصورة رسمية. وقد اعتمد نظام الأبارتهايد على قوانين عنصرية وتمييزية مختلفة، بما فيها قانون تسجيل السكّان الذي سجّل جميع أفراد السكّان حسب الجماعات العرقية التي يتحدّرون منها، وقانون المرافق الذي فَنّن الفصل العنصريّ في المرافق العامة، وقانون الإخلال بالأداب العامة الذي حرّم الزواج بين البيض والسود. وتضمّن تقنينُ ومأسسةُ الفصل العنصريّ إنشاء ما عُرف بالبانانتوسانات (Bantustans) -وهي مواطن السكّان الأصليين التي جرى فيها حصر السكّان السود وعزلهم.

وقد عمل نظام الأبارتهايد -وهي كلمة تعني "الفصل" في اللغة الأفريقانية (Afrikaans)- على تشكيل تراتبية هرمية عنصرية كان يحقّ للبيض بموجبها التمتع بمواطنة من الدرجة الأولى. وفي المقابل، شكّل "الملونون" و "الهنود" مواطنين من الدرجة الثانية، والأفارقة الأصليين مواطنين من الدرجة الثالثة. وبناءً على هذا التصنيف، نصّت قوانين الأبارتهايد على منع جميع حالات الزواج والعلاقات الجنسية بين "الجماعات السكانية" المختلفة، وإقامة مناطق سكنية ومرافق عامة منفصلة للجماعات العرقية المختلفة في جميع مؤسسات المجتمع، بما فيها المدارس.

على وجه التحديد، كان التعليم العامّ الذي يقوم على أساس التفرة العنصرية قد تأسس قبل ظهور نظام الأبارتهايد في جنوب أفريقيا. ويعود التعليم العامّ في تاريخه إلى العام 1905، حيث جرى تقديمه للبيض أولاً

وبصورة تدريجية¹ ويركز فوييسيل مسيلا،² في سياق تعليقه على التعليم التبشيري-الديني في جنوب أفريقيا، على الطابع الاستعماري للتعليم فيها، حيث يذكرنا بأن البريطانيين أسسوا في هذا البلد نظامًا تعليميًا شبيهًا بالأنظمة التي كانت قائمة في المستعمرات البريطانية في بقاع أخرى من أفريقيا، كوسيلة تتيح لهم فرض الهيمنة الاجتماعية على السكان السود الأصليين، ونشر لغتهم وتقاليدهم. وفي هذا الخصوص، كان التعليم التبشيري "موجهًا لتأمين خضوع الأفريقيين وإذعانهم وترويضهم عن طريق توظيف العقيدة المسيحية"³. وتظهر أهداف هذا النوع من أنواع التعليم بجلاء في تصريح صدر على لسان السير جورج جراي (Sir George Grey)، حاكم مقاطعة الكاب، في العام 1855:

"إن تركنا السكان الأصليين الذين خارج حدودنا على ما هم عليه من البربرية والجهل، فسوف يظلون عرقًا من اللصوص الذين يثيرون المشاكل. ينبغي لنا أن نحاول أن نجعلهم جزءًا من أنفسنا، بحيث يتقاسمون معنا ديننا ومصالحنا، ويشكلون خدمة يعودون علينا بالفائدة، ويستهلكون بضائعنا ويسهمون في رفق إيراداتنا. ولذا، فأنا أقترح أن نبذل جهودًا حثيثة ترمي إلى تربية السكان الأصليين في كنف المسيحية والحضارة، من خلال إنشاء بعثات بين ظهرانيهم وربطها بمدارس صناعية. فلن نُقدم الأعراف الأصلانية التي تقطن خارج حدودنا، والتي يتأثر أبناؤها بفعل بعثاتنا التبشيرية ويتعلمون في مدارسنا ويستفيدون من تجارتنا، على شئ الحروب على تخومنا"⁴.

قانون تعليم البانتو (كلمة "بانتو" تعني "الشعب" في عدة لغات أصلانية بما فيها لغة الزولو، وهي لغة تتحدث بها أغلبية السود) لسنة 1953 أرسى القاعدة لقيام نظام تعليمي دولي، وأتاح الظروف التي يسرت للدولة إنفاذ السيطرة التامة على المدارس، حيث كان يُنظر إلى السود باعتبارهم على قدر هائل من التخلف بما لا يمكنهم من تحديد المناهج التي يتعلمونها ومن إدارة مؤسساتهم التعليمية على نحو مستقل، وجرى الإبقاء على نظام التعليم القائم على الفصل العنصري على الصعيد المؤسسي من خلال اعتماد إدارة مختلفة ومنفصلة للتعليم في كل جماعة من الجماعات العرقية والإثنية الأربع (السود؛ الهنود؛ الملونون؛ البيض). ومن بين هذه الجماعات، كانت الأغلبية التي تتألف من السود، الذين جرى تصنيفهم إلى فئات وقبائل إثنية كذلك، تحتل أدنى منزلة في هذا النظام التراتبي الهرمي.

وترى ليندا شيشولم،⁵ في سياق تعليقه على هذا النظام، أن "أهداف التعليم كانت تسعى بصورة صريحة لا مواربة فيها إلى الإبقاء على تفوق البيض وهيمنتهم على الاقتصاد والدولة". وعلى وجه التحديد، يصف

Chisholm, Linda. (2012). Apartheid in post-apartheid South Africa. *Storia Delle Donne*, 8(1). Pp. 81-103¹

Msila, Vuyisile. (2007). From Apartheid education to the Revised National Curriculum Statement: Pedagogy for ² identity formation and nation building in South Africa. *Nordic Journal of African Studies*, 16(2). Pp. 146-160.

Ibid. P.148.³

Ibid⁴

Chisholm. P. 85⁵

إيتيين نيل وتوني بينز⁶ السياسة التي طُبقت في نظام التعليم باعتبارها "نظامًا مركزيًا وتسلطيًا يقوم على الولاء الأعمى للأيديولوجيات القومية والكالفينية الدينية، التي تؤمن بها حكومة الحزب الوطني التي ينحدر أعضاؤها من الأقلية البيضاء". وكانت هذه السياسة تستند إلى سياسة "التعليم القومي المسيحي" التي طرحها الحزب الوطني الذي وصل إلى سدة الحكم في العام 1948. وتبين المادة (15) من سياسة التعليم القومي المسيحي لسنة 1948 الأساس الذي يقوم عليه التعليم المرتكز على الأبارتهايد:

"نحن نؤمن بأن الدعوة التي تحتضنها جنوب أفريقيا البيضاء، ومهمتها في ما يتصل بالأصلائي، تكمن في تنصيره ومساعدته على الصعيد الثقافي، وتعتمد هذه الدعوة على مبادئ الوصاية، وعدم المساواة والفصل العنصري... وبما يتوافق مع هذه المبادئ، فنحن نؤمن بأن تدريس الأصلائي وتعليمه يجب أن يقوم في أساسه على حياة البيض ونظرتهم إلى العالم، ولا سيما تلك التي يعتنقها شعب البوير باعتبارهم الأوصياء البيض الذين يتسامون على السكان الأصلائين..."⁷

وعلى وجه الإجمال، شكّل نظام التعليم القائم على الأبارتهايد أداة مهمة من أدوات السيطرة وحماية تفوق البيض والامتيازات التي يحظون بها في الاقتصاد والدولة. وعلى وجه الخصوص، شدّد نظام الأبارتهايد على فصل التعليم وسلخه عن سياقه السياسي المحلي، وتضمينه محتوى دينيًا يشجّع الجوهرائية الثقافية التي أسهمت في المحافظة على علاقة القوة بين الأفارقة والبيض.

في نظام الأبارتهايد الذي كان سائدًا في جنوب أفريقيا، كان التعليم مصممًا من أجل نقل الأغلبية السوداء إلى "مصاف الحضارة"، حيث عمل هذا النظام على تكريس وتسوية التراتبية الهرمية للمجتمع، وتعزيز الوعي الأيديولوجي الجمعي الذي يعطي الشرعية للبنى المجتمعية وسياسات الهوية التي تفصل بين الأسمى والأدنى، وبين السيد والعبد، وبين الحاكم والمحكوم في نظام حياة الجماعات كافة في جنوب أفريقيا.⁸ وفي الحالة الإسرائيلية، يدّعي چولدبيرج⁹ في معالجته النقدية أنّ "الرؤية الصهيونية لإسرائيل" تقوم على تبني واجب دفع عجلة الحداثة في منطقة تتسم بتخلف سكانها العرب. ووفقًا لهذا المنظور الاستعماري، كما يبيّنه چولدبيرج:¹⁰

"تمثل إسرائيل الحداثة والتقدم والصناعة والاجتهاد، وهي تتطّلع إلى المستقبل المشرق وتحمل الرسالة الحضارية [...] وتمثل فلسطين الزمن الغابر، والمساعد التي كُتبت لها

Nel, Etienne & Binns, Tony. (1999). Changing the geography of apartheid education in South Africa. **Geography**, 6 48(2). Pp. 120.

Msila. P. 149.⁷

Thobejane, Tsoaledi D. (2013). History of Apartheid Education and the Problems of Reconstruction in South Africa. ⁸ Pp. 2..**Sociology Study**, 3(1)

Goldberg, David T. (2008). Racial Palestinization. In Lentin, Ronit (Ed.). **Thinking Palestine**. Pp. 25-45. London: ⁹ Zed Books

Ibid.¹⁰

الفشل [...]، والأرض العتيقة التي ما تزال تُفَلح باليد، والقصورَ المستفحل في الحكم،
ومكاناً ما يزال واقِعاً في قبضة زمنه الغابر (ص: 27).

ويوضع التعليم في إسرائيل في خدمة الأيديولوجيا والثيولوجيا السياسيّة التي يؤمن بها المستوطنون الإسرائيليّون المتشدّدون الذين، حسبما تراه إيّفا إيلوز،¹¹ يشبهون في العديد من الجوانب المُلّاك المناصرين للعبوديّة في الجنوب الأميركيّ في القرن التاسع عشر. وفي رأي إيلوز، يظهر هذا الأمر على نحو خاصّ في الطريقة التي يعتمدها هؤلاء المستوطنون في إيجاد الأسباب التي تسوّغ تفوّقهم بإضفاء هالة القداسة على الأرض وعلى أنفسهم من خلال الروايات التوراتيّة التي ينظرون فيها إلى أنفسهم، مثلهم في ذلك مثل المُلّاك المناصرين للعبوديّة، كما لو كانوا ينفذون إرادة الربّ. وفي نهاية المطاف، يعكس تعزيز الوشائج الدينيّة في نظام التعليم اليهوديّ القوميّ إيماناً ثيوقراطيّاً يرى أنّ إسرائيل دولة يهوديّة أوّلاً وأخيراً. وهذا الإيمان، أو الرؤية إن شئت، يتعارض نوعاً ما مع الرؤية القوميّة الإثنيّة التي تنظر إلى إسرائيل باعتبارها دولة "يهوديّة وديمقراطيّة"، حتّى إنّه يلغيها ويحلّ محلّها. فبفعل عمليّة الأدبنة هذه للمجال العموميّ وللتعليم خاصّة، يكتسي النظام التربويّ في إسرائيل بثيولوجيا سياسيّة خلاصيّة تتيح لمعتنقيها تفعيل النزعات الدوجماتيّة والعدوانيّة والعنصريّة الكامنة في الحركة الصهيونيّة الاستيطانيّة - الاستعماريّة.

خاتمة:

يُبقى الطابع الاستيطانيّ - الاستعماريّ للحركة الصهيونيّة عليّ إسرائيل "مشروعاً غير مكتمل" على الدوام، في حين يسوّغ التديين الخلاصيّ والغيبّيّ بتأثير تيار الصهيونيّة الدينيّة التوسّع المستمرّ لهذا المشروع ويهبه مشروعيّة غير محدودة. في حالة الأپارتهاید، اعتمدت أيديولوجيا نظام الفصل العنصريّ في جنوب أفريقيا على إنتاج ونشر معتقدات ومعرفة ترسّخ تفوّق البيض، وتكرّس الفصل بوصفه تعبيراً دينيّاً لرسالة متواصلة ومقدّسة من أجل "نشر الحضارة" و "التحديث" وتنفيذ إرادة الله في "تنصير" السود. ويجري الإبقاء على الفصل بين "نحن" اليهود المتفوّقين و "هم" الفلسطينيين الدونيّين من خلال ترويج رؤية دينيّة كبرى تتكفّل حركة المستوطنين اليهود بنشرها والترويج لها. وتُسرّع هذه الرؤية تفوّق اليهود الإثنيّ والدينيّ على غيرهم، وتُسوّغ مصادرة الأراضي على أساس الافتراض القاضي بأنّ الربّ قطع الوعد بإعطائها للشعب اليهوديّ.

Illouz, Eva. (2014, December 19). Where was the left when the settlers hijacked Zionism? [Haaretz](#)¹¹